

الفصل الأول

أسس ومضامين

نحن نعرف جميعاً أن التعليم القائم حالياً في المغرب هو امتداد واستمرار لنوعين رئيسيين من التعليم : تعليم وطني ، تقليدي ، أصلي — أو ما شئت من الأسماء — كان قائماً قبل الحماية ، وحافظ على وجوده ، مضموناً وشكلًا ، إلى اليوم . وتعليم استعماري أقامته الحماية لبناء المغاربة ، حافظ هو الآخر على وجوده مضموناً وشكلًا إلى وقتنا هذا .. طبعاً ، إن هذا لا يعني أن هذين المصنفين قد بقى كل منهما كما كان أول الأمر ، دون تغيير أو تعديل ، وإنما يعني أن التعديلات أو التغييرات التي أدخلت على هذا الصنف أو ذاك قد بقيت سطحية تتحرك في إطار الهيكل الأصلي لكل منها ، في إطار البنية العامة التي نشأ فيها ، ليغدو مما من جملة عناصرها الأساسية .

وعلى خلاف بعض البلدان العربية الأخرى ، فإن المغرب لم يعرف في بداية هذا القرن ولا في أواخر القرن الذي قبله — وهي الفترة التي ترعرعت فيها النهضة العربية الحديثة — لم يعرف سوى بقايا مفككة ، منقطة إلى أقصى الدرجات ، من تعليم عربي إسلامي عرف ازدهاراً كبيراً في القرون الوسطى .. لقد كانت جامعة القرويين و «المدارس» التعليمية

لها — خلال القرن الماضي وبداية هذا القرن — مثلاً لاقى ما يمكن أن تصل إليه مؤسسة علمية عتيدة ، من أنواع الانحطاط والتخلف : فلم يكن عدد المنتسبين إليها في عهد الحسن الأول (1873 — 1894) يتتجاوز الف طالب (400 من ناس و 600 من خارجها) (1) وهو عدد سينخفض إلى النصف خلال العقد الأول من هذا القرن (2) .

على أن هؤلاء « المنتسبين » ، سواء كثروا عددهم أو قل ، لم يكونوا طلاباً بمعنى الكلمة . فالآفاقيون ، وهم الأغلبية ، كانوا يقضون شبابهم وكهولتهم في بيوتات « المدارس » — وهي شبه داخليات — قائمين بـ « الخبرة » وبما قد يحسن به اليهم . أما الدراسة فهي أحوال مكرورة معادة باستمرار ، لن يفوتهم منها شيء سواء تغيبوا اليوم أو غداً ، أو انقطعوا عاماً أو عامين ، لم يكن للزمان حساب يومئذ ، وبالتالي لن يكون للإحصاء أي مدلول أو مغزى : فالطلاب هم أنفسهم طوال سنوات قد تمتد إلى العشرين والثلاثين بل والخمسين . إن الشيء الوحيد الذي كان يتغير هو سماتهم وملامحهم : شباباً فكهولاً فشيماً .

لقد كان هذا الجمود القاتل الذي عاشته جامعة القرويين في هذه الفترة ، يعكس بصدق جمود الوضعيّة العامة في البلاد : فلم تكن القرويين رواة في جزيرة نائية منعزلة ، بل كانت مؤسسة علمية « تحظى برعاية الدولة » ومرأبتها وتوجيهها ، بل لشد ما كان « المخزن » يحرض على الإشراف المباشر عليها : يعين الأستانة ويعين مواد الدراسة ، والكتب التي يجب استعمالها .. الخ . وكمثال على هذا نشير إلى الظاهر الذي أصدره المولى محمد بن عبد الله ، (1757 — 1790) والذي يحدد بدقة المواد التي يجب دراستها والمواد التي يجب تركها ، والكتب التي ينبغي الاعتماد عليها .. لقد ورد في نصوص هذا الظاهر قوله :

« ليعلم الواقع على هذه الفصول ، إننا أمرنا باتباعها والاقتصار
عليها ، ولا يتعداها إلى ما سواها ... »

« الفصل الثالث في المدرسين في مساجد فاس ، مانا نامرهم الا يدرسوا الا كتاب الله تعالى بتفسيره ، وكتاب دلائل الخيرات في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كتب الحديث المسنيد والكتب المستخرجة منها ، والبخاري ومسلما من الكتب الصحاح ، ومن الفقه المدونة والتبيان والتحصيل ..

« ومن شرط ان يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلسفه وكتب غلة المتصوفيه ، وكتب القصص ، فليتعاط ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرؤون بهم لا يدرؤون . ومن تعاط ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فسلا يلومن الا نفسه » . ويقول الاستاذ عبد الله تكون الذى اورد نص هذا الظاهر : لقد استمر العمل به في مهد هذا الملك ، « لكن ابطله والده » ، نرجع ما كان الى ما كان ، ثم عاد المولى عبد الرحمن بن هشام مجده في الجملة بمنشور آخر » (3) ومن الواضح هنا ان الاختلاف في وجهات النظر لدى هؤلاء الملوك انما يخص الكتب التي يجب الاعتماد عليها في الدراسات الفقهية ، أما العلوم الأخرى من فلسفة وكلام ومنطق .. الخ فقد ظلت ممنوعة محمرة .

لقد كانت القرويين اذن تحت الاشراف المباشر للمخزن ، تعكس ايديولوجيتها بكل وضوح – كما تعكس في نفس الوقت – الوضعيه العامه في البلاد . واذن كان الجمود الذى اصابها لم يكن فقط من ذاتها ، وإنما كان ايضا من ذات السلطة التي تشرف عليها وتحرص على مراقبتها .

ظلت جامعة القرويين على هذه الحال ، على هذا الجمود القاتل ، انى حوالى العشرينيات من هذا القرن ، اى الى الوقت الذى اخذت فيه فرنسا تخطط لسياساتها التعليمية بالمغرب . وتقد كان من بين المعطيات الاساسية التي كان المخططون للتعليم الفرنسي في بلادنا يولونها كامل

الاهتمام ، تلك النهضة الوطنية الفكرية والسيادية والاجتماعية التي كانت تجتاح المشرق العربي في ذلك الوقت . لقد كانوا يعرفون جيدا الآثار السياسية والاجتماعية التي خلقتها في المشرق حركات الاصلاح التي قام بها رواد النهضة العربية المثلية الحديثة من أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، والتي كانت تستنهض هم الشعوب العربية والاسلامية لمقاومة الاستبداد والتدخلات الاستعمارية ، كما كانوا يشعرون أيضاً باصداء هذه النهضة تردد – ولو بشكل خافت – في الاوساط المتعلمة بقائل : ولذلك وجدوا انفسهم ، بقصد القرويين ، امام اخيارين لا ثالث لهما :

— اما ترك هذه الجامدة تلقط انفاسها الاخيرة : وفي هذه الحالة سيتجه ابناء المغاربة الراغبين في الدراسات العربية الاسلامية الى المشرق .

— واما « تجديد » هذا الجامدة تحت اشرافهم وبرأقتهم وتوجيههم ، الشيء الذي سيمكن من البقاء على الشبان المغاربة في بلادهم ، وبالتالي يمكن من تلافي احتكاكهم مع نهضة الشرق احتكاكاً مباشراً .

وهذا فعلاً ما وقع عليه اخيارهم . وفي هذا الاطار ايضاً يجب ان نضع « الاصدحات » الجزئية التي عرفتها جامعة القرويين والتي قامت بها ، او سمحت بها ، سلطات الحماية الفرنسية . نعم لقد كان هناك ضغط من جانب رواد الحركة الوطنية المغربية من اجل اصلاح الجامعة ، ولكن الاصدحات التي تمت كانت جزئية سطحية ، وداخلة ضمن سياسة تعليمية معينة . يقول المسايوي بيكي (4) في كتابه « المغرب » الصادر عام 1920 :

« لقد احتفظت الحماية ، دون تردد ، بالتعليم القائم في هذه المساجد ، وعملت على ترميمه ، وعلى اعادة جامعة فاس الى سابق اشرافها (كذا) . ومن المؤكد انه من مصلحتنا ان لا يذهب المغاربة للبحث عن هذا النوع من التعليم (التعليم الاسلامي العالى) في الخارج ، كالجامع الشهور ، جامع الازهر بالقاهرة » .

وسيشرح المسيو مارتن (5) في كتابه « مغرب الغد » الصادر عام 1925 ، بوضوح ، وينطق استعمارى متسلك ، الموقف الذى يجب ان تتخذه الحماية من اصلاح القرويين فيقول : انه على الرغم من ان القرويين نجتاز ازمة خاتمة ، فانها لن تموت ، بل لا بد ان تتطور تطورا ذاتيا بتأثير الافكار الوافية من الشرق ، وفي هذه الحالة سينقلب الامر ضد الحماية وتصبح عاجزة عن التحكم في الاحداث ، ولذلك « يجب ان نعمل على تجديد القرويين لانه اذا لم نفعل ذلك نحن ، فلن هذا التجديد الذى تفرضه الظروف سيتم بدوننا وضدنا . ثم يضيف : ان تجديد القرويين سيتمكننا من « الاحتفاظ في المغرب بهؤلاء الشبان الفلاحين من عائلات مرموقه ، بدل تركهم يذهبون الى الشرق لتلقي العلم الذى ستخرجهم منه القرويين في حالة عدم تجدیدها . نعم يتسائل : ماذا يمكن ان يأتي به هؤلاء الشبان من الشرق ؟ « الا يعودون مزودين بميول انجليزية (كذا) او بروح الاهمية الاسلامية والمعصب الوطنى؟ »

لقد استقر رأى المخططين للسياسة التعليمية الاستعمارية في المغرب على ضرورة اجراء اصلاح شكلى على القرويين يبعث فيها بعض الحياة . أما طريقة هذا الاصلاح ومضمونه ، فيحدثنا عنهما المسيو مارتن في كتابه المذكور ، حيث يقترح : تعيين شخصية فرنسية تتولى التخطيط للإصلاح ، والشراف على تنفيذه ومراقبته . هذه الشخصية يجب ان لا يعلن عنها ، بل ينبغي ان تعمل من وراء ستار كمحرك للجنة من العلماء تعين ، بالاتفاق مع المخزن ، لهذا الغرض ، ثم ينتهي الى القول : « .. ومن هنا يتضح ان هذه الاداب المختفية ، المقترحة من اجل تجديد القرويين ، والاخاضعة لمراقبة فرنسية دقيقة ، ليست ، ابدا ، تدابير ثورية ، انها لا تستهدف غير بعث نفس الحياة القديمة التي كانت لجامعة القرويين ، ولكن بصيغة جديدة .. انها (تدابير) ستمكننا من توجيه التطور الداخلى لهذه الجامدة ، التطور الذى بدا يعلن عن نفسه منذ الان . ان المثل القائل « لا تحرك

من لا يحرك ساكنا » هو بكل تأكيد من احسن البلديّة السياسيّة . ولكن عندما يتملّم النّقام ويهدّد بالبيقة ، فإنّ الحكمة تقضي ، ولا شك ، ان لا يترك الإنسان نفسه يفاجأا بالاحداث » .

نعم ، لم تترك الحماية الفرنسية الاحداث تفاجئها ، بل خطّطت لها ، وتحكمت فيها ووجهتها . وهكذا بقيت جامعة المروين ومعها كلية ابن يوسف بمراكنش .. تعمل ، طوال عهد الحماية ، في نفس الاطار الذي عرفته من قبل ، وينفس المضمون الذي ساد فيها أيام انحطاطها . وهذا الاطار وهذا المضمون هما نفس ما ستعرف هذه الجامعة في المغرب المستقل ، مغرب اليوم !

نعم لقد كانت هناك اصداء للنّهضة العربيّة ، وكانت هناك حركة سلفية وروح وطنية مناهضة للاستعمار حمل لواءها شيخ الاسلام محمد بالعربي العلوى وبعض تلامذته ، ولكن هذه الحركة او هذه الروح كانت تعمل اما خارج هذا المضمون وذاك الاطار ، واما تحديا لهم .. اما المروين كمؤسسة تعليمية فقد بقيت دوما تحمل على جبينها سمات المجتمع القطاعي المتخلف وايديولوجيته المتخطة .

* * *

هذا عن اسس ومضمون التعليم الاصلي الذي ورثه المغرب المستقل ، والذى ما زال قائما الى الان ، يجسم ، بوجوده وبمشاكله ، جانبا من جوانب المشكل العلم : مشكل التعليم .

اما عن التعليم الحديث ، بكل اصنافه ، فيمكن الرجوع به هو الآخر الى ما قبل الحماية . وهنا يجب ان نبادر الى القول بأن المغرب لم يعرف ، قبل الحماية ، تعليما حديثا ينمو ويتطور وينتشر ، الى جانب التعليم الاصلي ، كما حدث في الشرق ، خاصة في مصر وسوريا ولبنان . ذلك لأن

النهاية العربية الحديثة التي حملت لواءها بوأكير البورجوازية العربية ضد الحكم الاقطاعي التركي والاحتلال الأوروبي ، والتي يمكن الرجوع بها إلى منتصف القرن التاسع عشر على الأقل ، لم تتردد أصواتها في المغارب — كما قلنا — إلا ابتداء من أواخر العشرينيات من القرن العشرين .

وانه لما له دلاته ان يلاحظ المرء كيف ان المغرب ظل غائبا عن هذه النهاية ، طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من هذا القرن ، على الرغم من انه ظل محافظا على استقلاله ولو شكليا ، وبالرغم من انه كان أقرب البلدان العربية الى باريس ، ملتقي الحركات التحريرية العربية السرية والعلنية ، والمكان الذي كان تصدر منه « العروة الوثقى » ، لنوزع على العالم العربي الاسلامي الا المغرب (لم نعثر على ما يؤكده العكس) .

لعل هذا راجع جزئيا الى ان الحركات التحريرية في المشرق ، كانت رد فعل ضد الاحتلال التركي والتدخل الاستعماري — الشيء الذي لم يعرفه المغرب يومئذ — ولكنه في الحقيقة راجع في الأساس الى العوامل الداخلية ، الى الوضعية العامة بال المغرب آنذاك . ان العناصر البورجوازية والاستقراطية التجارية التي عرفتها المغرب قبل الحماية لم تكن تعيش في وضعيّة تساعدها على ان تسم ببعضها البعض مرافق الحياة المغربية وعلى رأسها التعليم . لقد كانت تعيش وضعية شاذة جدا : البلاد في فوضى مستمرة ، في ثورة عارمة دائمة ضد نظام اقطاعي منهار بني وجوده على جيش « العبيد » — عبيد البخاري ، ضدًا على القبائل المغربية كلها ، التي كانت تعيش حالة ثورة دائمة غير منظمة (السيبة) ، مما جعل المخزن يسقط فريسة للانقلابات ، والانقلابات المضادة التي كان يقوم بها زعماء « العبيد » ، والتي كانت ترافقها عمليات واسعة من النهب والمصادرة للأموال والمتلكات . اضف الى ذلك المكوس والضرائب الباهضة التي كانت تفرض من جانب المخزن على التجار والأسواق والموانئ لتفطيم ثغرات الحرب الاهلية ومتطلبات حياة المخزن

وحتى ينهي ، أو لتسديد الديون للدول الاوربية ، أو اداء التعويضات لها من جراء حرب أو هزيمة .. كل ذلك جعل العناصر البورجوازية والاستقلالية التجارية في المغرب مهددة في وجودها المادى باستمرار ، فلجمات الى « الاحتياط » بالدول الاجنبية ، ابتعاد نوع من الحصانة الدبلوماسية داخل بلادها ، وفي ساقط رؤوسها ، حصانة تجعلها في مأمن من أن تمتد اليها يد المخزن بكيفية سافرة و مباشرة ..

لم يكن من الممكن ، أذن ، ان تتجذر هذه الطلاسم البورجوازية ، ولا ان تقوم بما قامت به مثيلاتها في الشرق من نشر الابيدولوجيا الليبرالية الغربية وانشاء تعليم مصرى يحمل هذه الابيدولوجيا . ولذلك ظل الفكر الاقطاعى هو السائد ، وظل التعليم في المغرب تعليما عتيقا منحضا يجتر نفسه ويعكس وضعية شاذة مهزولة متخلفة ..

ولذلك فمن العبث البحث في هذه الفترة عن اصداء لتلك الحركة العلمية التي عرفها الشرق العربى والاسلامى آنذاك .. وانما يمكن ان نمتر لقط على اصداء للحركة الصهيونية داخل صفوف اليهود المغاربة ، الذين تجد لديهم فعلا مدارس عصرية حديثة هي الاساس الذى قام عليه التعليم الاسرائيلي في المغرب ، هذا التعليم الذى ما زال يشكل أرقى أنواع التعليم الموجودة حاليا في المغرب ، مغرب 1973 !

* * *

بالفعل ، يمكن الرجوع بتاريخ التعليم الاسرائيلي بالمغرب إلى حدود سنة 1864 ، وهى السنة التي أصدر فيها الملك محمد بن عبد الرحمن (1859 - 1873) ظهير « الحرية لليهود » . وقصة هذا الظهير كما تحكيمها المصادر التاريخية (6) هي أن أربعة من اليهود المغاربة اتهموا بتنسيم مندوبي الحكومة الإسبانية المكلف باستيفاء التعويضات التي فرضتها إسبانيا على المخزن بموجب معاهدة نطاوان (1860) عقب هزيمته في هذه المدينة .. ولقد

طلبت الحكومة الإسبانية بمعاقبة المتهمن ، فأعدم اثنان منهم عام 1863 .. وكانت هذه الحادثة ، أعدام اليهوديين ، فرصة استغلتها الرابطة الإسرائيلية العالمية للقيام بحملة ضد « أسطهاد » اليهود في المغرب فبعثت بأحد أعضائها البارزين موسى حايم مونتيفيور Moses Haim Montefiore للتتدخل شخصياً لدى السلطان بمراكتش .. وفعلاً اتصل هذا اليهودي الغنى بالسلطان ، وقد قدم هداياه ، فحصل على ظهير صدر يوم 5 فبراير 1864 (1280هـ) وقد ورد في هذا الظهير : « نأمر من يقف على كتابنا هذا .. من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا ، أن يعاملوا اليهود الذين يسائزون إيتالينا بما أوجبه الله تعالى من تنصيب ميزان الحق ، والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام ، حتى لا يلحق أحداً منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضالم ، ولا ينالهم مكرهه ولا اعتقاد » . ويقول صاحب الاستقصاء (7) الذي أورد نص هذا الظهير « ولما مكثهم السلطان من هذا الظهير أخذوا منه نسخاً وفرقوها في جميع يهود المغرب ، وظهر منهم تطاول وطيش .. »

كان من نتائج هذا الظهير قيام اليهود المغاربة بتوثيق روابطهم مع الرابطة الإسرائيلية العالمية ، وبممارسة أنواع من الانشطة داخل البلاد بكيفية علنية رسمية ، من جملتها إنشاء عدة مدارس عصرية بمساعدة الرابطة المذكورة وتحت مراقبتها (6) . وهكذا أخذت تظهر على التوالي ، في مختلف الدين المغربية ، مدارس إسرائيلية ، تقدم لبناء اليهود المغاربة تعليمها عصرياً يلقن باللغة الفرنسية ويعلم اللغة العبرية (من جملة هذه المدارس مدرسة بالعرائش أمست عام 1878 ، وأخرى بفاس عام 1882 وثالثة بالصويرة عام 1888 ورابعة بالرباط 1903 وخامسة بالبيضاء 1903 وسادسة بأسفي 1901 وب سابعة بالقصر الكبير وثامنة بازيلال .. بالإضافة إلى مدرسة طنجة التي يرجع تاريخها إلى 1862) (8) .

لقد وجدت الحماية الفرنسية بال المغرب تعليمها اسرائيليا حديثا (20) مرسة سنة 1908 بها نحو 4000 طفل يتخذ من اللغة الفرنسية لغة علم وثقافة ، فتجتمعه وامتهن المساعدة واولته كامل الرعاية كما سترى فيما بعد . (تشير هنا الى انه ابرمت عام 1915 اتفاقية بين الرابطة الاسرائيلية العالمية ومديرية التعليم بال المغرب ، ثم جددت عام 1928 ، وهي اتفاقية تعتبر بمثابة القانون الاساسى المنظم للتعليم الاسرائيلي في المغرب . وبمقتضاه كانت تلقى هذه المدارس الاسرائيلية اعانت مالية من ادارة الحماية ، وقد بقىت حكومات الاستقلال توالي تقديم هذه الاعانة) .

هذا عن التعليم الاسرائيلي الذى وجدته الحماية بال المغرب ، اما عن مدارس الجاليات الاوربية فلقد كانت هناك عام 1908 ، 13 مدرسة اسبانية و 4 مدارس انجليزية . اما المدارس التي كانت تشرف عليها الرابطة الفرنسية فهي نوعان : « المدارس المغربية الفرنسية » (مدرسة طنجة 1898 ، مدرسة العرائش 1905 ، مدرسة وجدة 1907) ، و « المدارس الفرنسية » المحض (مدرسة روبيني بطنجة 1888 ومدرسة بيري بطنجة كذلك 1904 ومدرسة بترمان بالبيضاء 1907) (9) . المدارس التي من النوع الاول كانت تلقن ابناء المغاربة تعلیمها فرنسيا اوليا مع بعض المواد العربية ، والمدارس التي من النوع الثاني كانت خاصة بابناء الجالية الفرنسية ، وكان التعلم فيها مماثلا للذى كان موجودا في فرنسا . (« المدارس الفرنسية العربية » هي نواة التعليم الاهلى — الاسلامى — الذى اقامته فرنسا بال المغرب ، اما « المدارس الفرنسية » المحض فهي نواة التعليم الاوربى الذى كل يشكل أيام الحماية ارقى انواع التعليم بال المغرب ، وهو خاص بالاوربيين موما ، وقد تحول بعد الاستقلال الى « مدارس البعثة الفرنسية » مع استمرار بتقليا منه في بعض مؤسساتنا التعليمية الى الان)

* * *

— 16 —

ذلك كانت بكيفية اجمالية ، الارضية العامة التي اقامت عليها الحماية الفرنسية تعليمها في المغرب . ونحن عندما قمنا باستعراض معالم هذه الارضية ، وحينما سنستعرض فيما يلى مضمون السياسة التعليمية الفرنسية ، ببلادنا ، لا نفعل ذلك لمجرد الرغبة في سرد حقائق تاريخية ، ولكن من أجل أن نتبين بوضوح الهيكل العام والمضمون الاجتماعي والسياسي الذي قام عليهما تعليمينا الراهن .

ما هي المبادئ الموجهة والاهداف الظاهرة والخفية التي بنت عليها الحماية الفرنسية سياستها التعليمية في المغرب ؟

للاجابة عن هذا السؤال طريقان ممكنان : أولهما الرجوع الى التخطيط الذي قد تكون سلطات الحماية قد اعدته قبل الشروع في اقامة هيكلها التعليمي . وثانيهما استخلاص هذه السياسة من نتائجها الفعلية ، أي من خلال المسير العام لهذا التعليم ، من خلال المراحل التي قطعها والاهداف التي حققتها . الطريقة الاولى تاريخية تستند على وثائق تشهد على نية صاحبها ، والطريقة الثانية استراتيجية — استقرائية تستند على وقائع تكشف عن حقيقة سلوكه ونتائج اعماله . ومن حسن الحظ اننا نتوفر على الامكانيتين معاً .

فلنبدأ ، اذن ، بالوثائق ، بالشهادات التي تشهد على نوايا اصحابها . وتجنبنا للإطالة والتكرار سنعتمد فقط الى شهادتين مهمتين جداً ، صادرتين عن شخصيتين تعتبران من ابرز المسؤولين الفرنسيين الذين خططوا لسياسة التعليمية الفرنسية بالغرب ، والذين سهروا على تنفيذها مدة من الزمن .

« **منذ سنة 1912 دخل المغرب في حماية فرنسا ، ولقد أصبحت** نفس الواقع أرضاً فرنسية . وعلى الرغم من استمرار بعض المقاومة في تخومه ، تلك المقاومة التي تعرفون أتفهم وأخواتكم في المسلح مدى ضرورتها ، فاته يمكن القول ان الاحتلال العسكري لمجموع البلاد قد تم . ولكننا نعرف ،

نحن الفرنسيين ، ان انتصار الملاح لا يعني النصر الكامل : ان القوة تبني الامبراطوريات ، ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرار والدوام . ان الرؤوس تتحنى امام المدفع ، في حين تظل القلوب تفدى نظر الحقد والرغبة في الانتقام . يجب اخضاع التفوس بعد ان تم اخضاع الابدان . واذا كانت هذه المهمة اقل صخبا من الاولى ، فانها صعبة مثلها ، وهي تتطلب في الغالب وقتا اطول . »

بهذه العبارات البليغة خاطب المسيو هاردي (10) مدير التعليم بالمغرب جماعة من المراتبين المدنيين اجتمعوا بمكتاس عام 1920 في دورة من الدورات التكوينية التي كانت تنظمها لهم سلطات الحماية لتزويدهم بالتجهيزات اللازمة ، وارشادهم الى طريقة العمل في المناطق التي كلفوا بالسيطرة عليها .

« يجب اخضاع الآفوس بعد ان تم اخضاع الابدان » .. عبارة تتصفح بوضوح عن كامل مضمونها .. ولكن الامر من ذلك هو الصراحة التي يشرح بها هذا المسؤول الكبير (منصبه يوازي منصب وزير التعليم) مخططه وبرنامج عمله ..

يلاحظ اولا ان سكان المغرب طوائف ثلاث : المسلمين ، الاسرائيليون ، الاوريبيون ، لكل منها ثقافتها الخاصة وتعليمها الخاص . والتجديد او التطوير الذي ينبغي على الحماية ادخاله في التعليم يجب ان يراعى هذا التقسيم الطائفي اولا ، كما يجب ان يراعى الوضعية الخاصة بكل طائفة . وهنا يبدأ في تحليل الوضعية الاجتماعية والفكرية لهذه الطوائف الثلاث .

بالنسبة للمغاربة — المسلمين — يلاحظ انهم يشكلون ثلاث طبقات متميزة :

— طبقة النخبة ، وهي متعلمة مثقفة نسبيا وت تكون من رجال المخزن والعلماء وكبار التجار وجميع من يعبر عنهم بأعيان البلد .

— جماهير المدن الكادحة ، الجاهلة المحرومة .
— جماهير البدائية المتخلفة ، المنعزلة ، المبعثرة ..

وبعد تحليل وضعية هذه الطبقات ومميزاتها الخاصة يستخلص النتيجة التالية ، فيقول :

« .. وهكذا فنحن متزمن بالفصل بين تعليم خاص بالتخيبة الاجتماعية ، وتعليم أعموم الشعب ، الأول يفتح في وجه ارستقراطية ، مثقفة في الجملة متحضره ومهذبة ، ولكنها ارستقراطية توقفت عن القمودى بسبب تأثير العلوم الوسيطية (= المرون الوسطى) ، ومهذدة في وجودها المادى بسبب افتقادها لاساليب الاقتصادية الحديثة نتيجة اللامبالاة من جانبها . ان التعليم الذى سيقدم لهذه التخبة الاجتماعية ، تعليم تطبيقي يهدف الى تكوينها تكوينا منظما فى ميادين الادارة والتجارة ، وهى الميادين التى اختص بها الاعيان المغاربة . اما النوع الثانى وهو التعليم الشعبي الخاص بجماهير السكان الفقيرة والجاهلة جهلا عميقا ، فسيتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي : في المدن يوجه التعليم نحو المهن اليدوية (خاصة مهن البناء) والى الحرف الخاصة بالفن الاهلى . هذا الفن الذى يكتسى أهمية خاصة من جميع الوجوه ، والذى يجب العمل على احيائه وبعثه . اما في البدائية فسيوجه التعليم نحو الفلاحية ، والتشجير وربية المواشى . واما في المدن الشاطئية فسيكون التعليم موجها نحو الصيد البحري والملاحة » .

اما عن « المزادات العامة » التى ستختال هذه التعليم التطبيقي ، فهو ، بطبيعة الحال ، اللغة الفرنسية التى بواسطتها « ستفتمكن من ربط تلاميذنا بفرنسا » ، والتاريخ الذى يجب ان يعطيهم « فكرة عن عظمة فرنسا » ولكن دون اهتمام تاريخ المغرب (كذا) ..

هذه هي أنواع التعليم التى خص بها المسويو هاردى المغاربة المسلمين . و واضح انها كلها تستهدف خدمة المصالح الاقتصادية والسياسية الفرنسية :

نيدارس النخبة مهمتها تكوين الموظفين والاعوان الاداريين ليكونوا صلة انوصل بين الشعب وسلطات الحماية . ومدارس المدن مهمتها تكوين اليد العاملة المدربة للمعامل والمصانع الفرنسية داخل البلاد وعلى الشواطئ . وأما مدارس البادية فمهمتها اعداد اليد العاملة المدربة لضيغات المعمرين وحقولهم .. فالهدف القريب والبعيد هو اعداد « الادوات البشرية » المغربية التي بإمكانها ان تخدم السيطرة الفرنسية بشكل افضل .

على انه لستنا هنا في حاجة الى الكشف عن المرامى الخفية لهذه السياسة الاستعمارية ، فقد اشار اليها المساو هاردي بنفسه ، ويوضح حينما قال :

« ان تعليمنا سيتمكن الصغار من الحصول على المفردات الضرورية للحياة العائلية والمهنية ، كما سيتمكن الكبار من اكتساب القدرة على تحرير رسائل الاعمال (الخاصة ب الرجال الاعمال) .. ان هذه المبادئ التي يجب مراعاتها من اعلى الى اسفل في سلك تعليمنا ستتجه طريقها نحو التطبيق بواسطة المؤسسات الآتية : للفخبة الاجتماعية مدارس ابناء الاعيال التي تعطى فقط تعليماً اولياً ، وثانويات اسلامية تهتم للوظائف الادارية والتجارية . وللطبقات الشعبية في المدن مدارس حضورية تعمل على اعداد اولى للمهن اليدوية ، والتجبياء من تلاميذها يوجهون الى المدارس المهنية . أما جماهير البلدية فستكون لها مدارس قروية مزودة ببساطتين للتعليم والتطبيق ، تعمل على تلقين المعلومات الاولية في الفلاحه وتربية الماشية ، والتجبياء من تلاميذها يوجهون الى المدارس الحقيقية . أما بالنسبة لسكن الشواطئ فستكون هناك مدارس خاصة بهم توجه الاطفال نحو الصيد والملاحة » .

والفكرة الأساسية الموجهة التي تقف وراء هذا التخطيط وهذا التنوع في المدارس ، هي التالية : يقول بالحرف الواحد ، « إن أكثر ما يجب أن

نهم به هو ان نحرض على ان لا تصنع لنا المدارس الاهلية رجالا صالحين لكل شيء ولا يصلحون لاي شيء . يجب ان يجد التلميذ بمجرد خروجه من المدرسة عملا يناسب التكوين الذى تلقاه ، حتى لا يكون من جملة اولئك المارفين المزيفين اولئك اللامانعين طبقيا ، العاجزين عن القيام بعمل مفيد ، والذين تحصر مهمتهم في المطالبة ، هؤلاء الذين عملوا في المستعمرات الفرنسية الاخرى ، وفي غيرها من المستعمرات ، على جعل التعليم الاهلي يصبح منبعا للاضطراب الاجتماعى » .

هذه الانكار الاساسية الموجهة يعود المسيو مارتى (11) ليشرحها ويفصل القول فيما في كتاب صدر له عام 1923 بعنوان : « مغرب الفقد » حيث حدد بدقة ثلاثة مبادىء أساسية يجب ان يقوم عليها التعليم الفرنسي في المغرب . وهذه المبادىء هي :

1 - انتقاء زبناء المدارس على أساس طبقي :

ويشرح هذا المبدأ فيقول : « هناك انتقسام طبقي واضح في المغرب . فالطبقات يتميز بعضها عن بعض بوضوح كامل . وكل منها سعيدة (كذا) بحظها ونصيبها .

فهي اسفل السلم هناك الجماعات الدنيا ، نصف مستعبدة ونصف مسخرة ، وهي تتحرر معنويًا من يوم لآخر ، وتتطور نحو الخدمة الماجورة . ثم هناك الشعب : فلاخون ، ورعاة ، وعمال منظمون في اتحادات مهنية او غير منظيمين .

ثم هناك البورجوازية التجارية والتقوية .

واخيرا هناك في أعلى السلم « رجال المخزن » الذين يديرون البلاد ، و « رجال الدين » سواء كانوا من الشرفاء او العلماء او من المتصوفين واصحاب الزوايا .

.. وانه لمن واجبنا ومن اجل مصلحتنا مما ، عند ما نوجه مجهوداتنا لادخال اصلاحات ثقافية في المجتمع المغربي ان لا نعمل على زعزعة هذا المجتمع وان لا نمس تقاليده . يجب ان نعطي لجميع الطبقات « خير الحياة » (= التعليم) الذي يناسبها والذي هي في حاجة اليه ، كما يجب ان نوجه تطور كل من هذه الطبقات في الاطار الخاص بها .. هنا كما في بلدان اخرى ، توجد بروليتاريا يدوية . ان ابناء العمال وال فلاحيين والمصياديون هم موضوع اهتمام زائد من طرف العمالة ، ان لهم مدارسهم الابتدائية ذات الاتجاه المهني ، الفلاحي ، الرعوي ، الملاحي حسب المنطقت .. ولكن ليس لدينا في المغرب بروليتاريا فكرية . فهل هناك اية فائدة في خلق مثل هذه البروليتاريا الفكرية ، سواء بالنسبة مصلحة المجتمع المغربي او بالنسبة للسيطرة الفرنسية ؟

يقينا ، لا . ان عمليا المظيم الذي تقوم به من اجل التجديد الثقافي يجب ان يحصر فقط ضمن الاطر التقليدية لهذا المجتمع . وسيتجه نحو البرجوازية التجارية والقروية ، نحو موظفي المخزن ، نحو رجال الدين او رجال العلم ، وبكلمة واحدة نحو النخبة .. ان الخطر كل الخطر كامن في صنع طبقة من المثقفين ثقافة اوروبية . طبقة لا ركائز لها ولا ماض ولا تقاليد ، القسم الذي سيجعل منها مرتعها خصبا لجميع الاغراءات .

واثن فيجب ان لا نهتم بالكلم (اي بتعليم التعليم) . يجب ان لا نصنع في المغرب ، سنة بعد اخرى وبشكل مطرد ، وعلى حساب مصلحة المجتمع المغربي ومصلحة الامبراطورية الفرنسية ، رجالا ينمي فيهم التعليم انواعا وحالات وأملا ان يقدروا هم على ارضيتها بأنفسهم ، وان تقدر العمالة ولا المخزن ولا المستعمرة ولا الاقتصاد المغربي على تحقيقها لهم .. فكيف لا يجزم المرء بان هذه القدرات التي ستبقى دون عمل ، ستنتصب ضد مصلحتها (كما) وضد مصلحتنا نحن .. ولهذا فاته من المستحيل ، بعد

الذى قلناه ، ان يخرج المزء بنتيجة غير النتيجة التالية : ان زيناء مدارسنا الثانوية ، ومدارس ابناء الاعيان ، يجب ان يكونوا من هذه النخبة الاجتماعية التى يقبلها الشعب ويحبها ويحترمها والتى تحكمه بكل قوى الدين والعلم والمهنية والادارة والثروة . يجب ان لا نخلق — بواسطة التعليم — جماعة من الساخطين المستائين اللامتحنين طبقا . لبقاء اسياد المستقبل ، لجمع بين الصفة الاجتماعية والنخبة الفكرية ، وذلك بمنع التربية الفكرية الرفيعة لاطر المجتمع المغربي وحدها ، او تلك الذين يستطيعون استيعابها واستعمالها . . .)

2 — الابقاء على التقىبية في المغرب :

وبعد ان يشرح الميسو مارتنى المتاعب الذى جنتها بريطانيا بسبب السماح لشباب مستعمراتها بالدراسة في الخارج حيث «يتلقون في الجامعات وفي المقاهى والقصوارئ، مبادئ وآراء ثورية» يقول : «ان هذه المخاطر يمكن تجنبها الى حد كبير اذا بقى الشباب المغربي يتبعون دراستهم الثانوية والعالية في نفس المكان (المغرب) . . لنحتفظ اذن بشبابتنا المغربية في المغرب ، ولنتخاذل هذا قاعدة لا نحيد عنها الا اذا كان الامر يتعلق بطلاب الشعب العلمية والتكنولوجية لها اهداف واضحة (المدارس العليا للفلاحنة ، والكهرباء ، والميكانيك والصناعات المختلفة) . .

3 — الحفاظ على الروح الدينية

اما المبدأ الثالث الذى يجب ان تقوم عليها السياسة التعليمية كما يرسمها الميسو مارتن فهو المحافظة على الروح الدينية في المدارس الثانوية والخاصة بالمقاربة ، وذلك قصد الابقاء على المثقفين المغاربة في اطار وضعيتهم التقليدية . وخلاصة ما يقرره في هذا الشأن هو ان الابقاء على الروح الدينية المحافظة ضرورة اكيدة ، لأن ادخال العلمنات للمدارس يعني ادخال نار

الثورة في المجتمع المغربي ، ولأن البقاء على هذا المجتمع راكمدا محصوراً في
أطروه التقليدية يتطلب البقاء على نوعية الفكر الديني السائد .

* * *

هذه هي المبادئ العامة الأساسية التي حرص دهاقنة الاستعمار
الفرنسي على تطبيقها بدقة بخصوص التعليم الذي انشاؤه لبناء المغاربة .

اما بالنسبة للتعليم الإسرائيلي فستدرك المسيو هاردي يتحدث لنا
عن نوایاه ازاءه ، في محاضرته المشار اليه قبل . ولنبدأ معه بالفتیات
الاسرائيليات يقول :

« واما بالنسبة للفتيات (الاسرائيليات) فيجب ان نجعل منها ، قبل
كل شيء ربات منزل نظيفات ، سليمات الجسم ، مسلحات بمبادئ التربية
وقواعد حفظ الصحة ، كما يجب ان نفتح للانى يردن منها عملا يكسبن به
عيشهن ، مصانع تزيينات والطرز ومعالجة الثياب والحرير .. وبذلك
ستنحصل لهن ميدانا للعمل لا يناسبهن فيه احد . وبذلك ايضا سنحصل الى
« الملاح » الذي يعرف لون الذهب ، سنحصل اليه اللون الأزرق واللون
الوردي ، يا لها من ثورة ، لو نجحنا في تحقيقها » .

اما مدارس بناء اليهود - الذكور ، فيقول عنها انها يجب ان تكون
معاهد للتكون الجسمى والجمالى ، تعنى بالرياضية البدنية وتعليم قواعد
الصحة وتشتمل على مطاعم مدرسية ، وذلك حتى يصبح في الامكان
« تحويل العقلية اليهودية المغربية الى عقليّة متحضرّة مع احترام الدين
والعادات الدينية الاسرائيلية . واما من الناحية العلمية الفنية ، فيجب
تعليم الاسرائيليين تعليما فنيا كالمحاسبة الفحالية والقسيمة الاداري .
وعلى العموم اعدادهم للمهارات العصرية المنتجة اعدادا يحارب فيها الفقر » .

ليس هذا فحسب ، بل ان الماسيو هاردي يدخل في حسابه منذ ذلك الوقت ، اي منذ 1920 ، المطامح الصهيونية لدى اليهود المغاربة . يقول بالحرف الواحد :

« يمكنني أن أؤكد أننا سنتوفر قريبا على مدارس فنية كبيرة تجسل من شبابنا الأسرائيليين فنيين وختصاصيين من الدرجة الأولى في الميكانيك والتجارة الفنية . ومن يدرى فإذا كان بعضهم متقدماً مناته سيجد نفسه يوماً يعيش في طماتينة الأرض الموعودة — أرض فلسطين — فيما عيدهم إلا أن يقبلوا ما ذكر الآن على المدارس الفلاحية » .

* * *

يبقى أخيرا التعليم الأوروبي الخاص ببناء الفرنسيين خصوصا والأوربيين عموما ، وهو تعليم لا يحتاج إلى شرح مخطط الحماية بشأنه : خصوصا ونحن نعلم أنه بقي دوما التعليم الممتاز بالمغرب ، التعليم الذي يساير التعليم الموجود بفرنسا . ويكتفى أن ننظر إلى « مدارس البعثة الفرنسية » الموجودة حاليا ، والتي هي استمرار له ، إنها خير من يعطينا تفاصيل أخباره .

* * *

ذلك كانت بالاجمال الاسس والمضامين التي اقامت عليها فرنسا سياستها التعليمية بالمغرب ، نعود فنجملها فيما يلى :

— البقاء على التعليم الأصلي — تعليم القرويين — كما كان ، وادخال اصلاحات جزئية تبعث فيه بعض الحياة ولكن دون السماح لاي تغيير جذري يمس هيكله او مضمونه .

— إنشاء تعليم اهلى — اسلامي — طبقى استعماري ، المهد منه اعداد الاطر المتوسطة الصالحة لخدمة الوجود الاستعماري الفرنسي بالمغرب ، السياسي منه والاجتماعي والاقتصادي .

— منع الشباب المغربي من التفتح على المشرق العربي ، وعزله عن التيارات التحررية التي كانت تهب على العالم العربي الإسلامي أو التي كانت تجتاح العالم الأوروبي .

— المعنية الفائقة ببيان وأبناء اليهود المغاربة واعدادهم الاعداد اللازم للحياة العصرية الفنية والإدارية والتجارية ، والنظر بعين العطف إلى " مطامحهم الصهيونية " .

— هل طبقت الحماية الفرنسية هذه السياسة التعليمية فعلا ؟ ليس المهم الايجابة عن هذا السؤال بالف نعم . ولكن المهم هو أن هذه المبادئ ما زالت بنفس مضمونها ، تتحدث عن نفسها في تعليمنا الحالى على الرغم من مرور سبعة عشر عاما على استقلالنا .

المراجع والهوامش

- 1 - PAUL MARTY : Le Maroc de demain - Paris 1925.
- 2 - A. PERETIE : Les Médraasas de Fes - Archive Marocaine - Volu-XVIII - Paris 1912.
- 3 - عبد الله كلون : **ابوغ المغربي في الأدب العربي** . ص 277 دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1961 .
- 4 - V. PIQUET : Le Maroc. P. 304. Armand Colin - Paris 1920.
- 5 - PAUL MARTY : Le Maroc de demain P.P. 71-81.
- 6 - JACQUES CAILLE : La petite Histoire du Maroc E. Atlantique - Casablanca 1954.
- 7 - أبو العباس أحمد الناصري : الاستقصاء . ج 9 من 113 دار الكتاب البيضاء 1956 .
- 8 - ANNUAIRE DU MAROC : Deuxième année 1904 P. 153.
- 9 - CH. RENE - LECLERC : L'Enseignement au Maroc - Alger 1908.
- 10 - M.G. HARDY : Le problème scolaire au Maroc - Casablanca. Imp. Rapide - 1920.
- 11 - P. MARTY : IBID P.P. 122-123-124.